دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان: نظرات حول الوحدة والرابطة الدينية والأمن القومي
المصدر: المستقبل العربى
الناشر: مركز دراسات الوحدة العربية
المؤلف الرئيسي: الحسيني، محمد صادق
المجلد/العدد: مج15, ع159
محكمة: نعم
التاريخ الميلادي: 1992
الشهر: مايو
الصفحات: 140 - 152
رقم MD: 712692
نوع المحتوى: بحوث ومقالات
قواعد المعلومات: EcoLink
مواضيع: البلاد العربية
رابط: http://search.mandumah.com/Record/712692

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

نظرات حول الوحدة والرابطة الدينية والأمن القومي

محمد صادق الحسيني
باحث عربي.

مدخل

لا نغلو إذا قلنا إن العالم اليوم على مفترق طرق. وإن الأمم والشعوب تعيش منعطفاً حاداً من منعطفات مسيرة الحياة واستمرارية النسل والتوالد البشري. وكلما اقتربنا يوماً من نهاية القرن العشرين تسارعت الخطى، وتدافعت اللحظات في سُلَّم التطور البشري العام، إن في حقل زيادة المعرفة ونمو الوعي الانساني بحقيقة الوجود، أو على صعيد عالم الوجدانيات وعلوم ما وراء الطبيعة وعلم الأخلاق، أو في جوانب الثورة العلمية المتتابعة والمتسلسلة في عوالمها المتعددة في النظرية والتطبيق، بحيث أصبحت تشكل لوحة فنية صارخة الألوان متشابكة الخطوط متوهجة الأنوار متداخلة المناظر، تُنذر إمَّا بانبلاج عالم ما بعد الوجود المادي المعاصر أو انكسار مرعب ومُخيف يأتي على ما تبقى من همزة الوصل والالتحام بين الشاهد والمشهود.

في مثل هذا العالم المشحون بالتوترات العالية والمرتسمة على سطحه كل الأزمات التاريخية الكامنة، وفي ظل نهضة الأمم والشعوب والأقوام والقبائل المختلفة كُل يسعى إلى اكتشاف ذاته وتشكيل هويته الخاصة المتمايزة أملاً بالنجاة بمفرده أو المساهمة في انقاذ ما يمكن انقاذه من ميراث البشرية المُهدَّد بالفناء والدمار الشامل في حال تكسَّرت اللوحة البشرية، وحصل الطوفان الكبير الذي يُروِّع العالم بين الفينة والفينة بسبب إصرار قوى الشر والعدوان على الهيمنة والتسلط، ومحاولة الاستئثار بكل المقدرات والثروات الروحية والمادية للجنس البشري. في مثل هذه الظروف العصيبة التي يمر بها عالمنا المعاصر، ونحن على أبواب قرن ميلادي جديد، يوصف منذ الآن بأنه قرن ما بعد التحولات الكبرى، أو قرن تاريخي جديد للبشرية يختلف تماماً عن كل التاريخ الانساني العام الذي سبقه. وبالطبع، فإنهم يُريدون صناعة هيئته ورسم هيكله وصياغة قوامه على قياساتهم وطبقاً لمعاييرهم وتصوراتهم. خاصة أنهم ـ والمقصود هنا أصحاب الجاه والمال والسلطان العالمي الراهن ـ كانوا هم القادة والساسة الفعليين للعالم منذ أفول نجم حضارة المشرق الاسلامي، وانبلاج شمس مدنيتهم الصناعية المالية المدينية القائمة على حركة تطور المادة

المتسارعة، والمصحوبة بالتحوّلات الكبرى بعد أن ركبوا ناصية العلم في الوقت الذي ابتعدنا نحن عنها. فتخلّفنا عن ركب الحضارة والتطور البشري، وتقدموا هُم على غير هدى ومن دون رحمة حتى أوصلونا إلى المأزق التاريخي الراهن. فهل من محيص؟ وهل من خلاص؟

إنه السؤال الذي يدور على ألسنة كل أفراد بني البشر هذه الأيام. ومن جهتنا نحن أبناء الأمة العربية والاسلامية لا بد أن نكون معنيين بهذا المخاض الانساني العصيب. لا سيما أن بلادنا كانت مهد الديانات التوحيدية من جهة، اضافة إلى أن مستقبل الصراع الانساني وميدان الجولة الأخيرة من المعترك الحضاري، كما يبدو وتشير العلائم الظاهرية، سيُحسم فوق هذه البلاد المقدّسة.

إن اتجاه الأحداث وسير التطورات الانسانية في العقود القادمة مرهون إلى حد كبير بمدى تحمُّلنا نحن العرب والمسلمين مسؤولياتنا التاريخية تجاه المجتمعات البشرية. فإذا ما كُنا أهلاً لحمل الأمانة التاريخية التي تركها في أعناقنا خاتم الأنبياء هدى ورحمةً بالانسانية، فإن المستقبل سيأخذ الوجهة الصحيحة القادرة على تعديل الانحراف والعودة إلى الصراط المستقيم. وأمّا إذا ما تخلّفنا عن التصدي للمهمة الآنفة الذكر وتركنا الحبل على الغارب، وانجرفنا مع التيار العام، فإن أول أمة ستتعرض للدمار والتخريب ثم تُسحق، وتتعرض للفناء ستكون لا شك هي أمتنا الاسلامية وفي المقدمة منها سيكون الشعب العربي بالتأكيد.

في ظل عالم كهذا تتقاذفه الأمواج، وفي ظل هذا الصراع المحموم على قيادة العالم بين الأمم الأوروبية والأمريكية والآسيوية الحديثة النشأة بعد أن تراجعت دفة القيادة عن أيدي المسلمين وانتقلت من منطقة حوض المتوسط إلى منطقة حوض الأطلسي حيث تقف اليوم الولايات المتحدة الأمريكية على رأس قوى الهيمنة والتسلط والجور؛ لا بد لأبناء الأمة العربية والاسلامية أن يتنادوا من كل حدب وصوب لتدارس أوضاعهم وبحث أسباب تراجعهم وعلل تدهور حضارتهم بالرغم من توافر كل أسباب المجد والرفعة في تراثهم الفكري والعلمي وكمون كل أسباب اليقظة والانطلاقة والنهضة في دينهم وحضارتهم ومبادئهم ومُثلهم العليا.

ولا حاجة بنا إلى التذكير بالتغيرات والتحولات الكبرى التي طرأت في عقد الثمانينيات على خريطة العالم ابتداء من الحدث الايراني الكبير في نهاية السبعينيات وانتهاء برياح التغيير العاصفة في أوروبا الشرقية في الأيام الأخيرة حتى نثبت مدى امكانية التغيير الهائلة التي تمتلكها الجماهير في حال وعي ذاتها واكتشاف هويتها واستعادتها زمام المبادرة. ويكفينا درساً بليغاً لا يزال يُتلى علينا يومياً ويتفاعل في كل لحظة من وجودنا ما يحصل من حركة تغييرية مستمرة متصلة ومن دون انقطاع فوق أرض المقدسات في قلب الوسط من بلادنا المباركة فلسطين حيث الانتفاضة الشعبية العارمة، تلك الظاهرة البسيطة المظهر العميقة الباطن الراسخة جذورها في أعماق التاريخ الانساني الأصيل. فالعودة فيها إلى الجذور واضحة لا ريب فيها. عودة إلى أول سلاح بدائي اخترعه الإنسان في مواجهة معضلات الحياة ومشكلات الطبيعة، وإذ به اليوم يتم استخدامه مُجدداً بعد شحذه وصقله ليواجه ويقارع أشد الأسلحة فتكاً وأكثر الجيوش تدريباً وأشد الأجهزة السلطوية قمعاً وتخريباً في العصر الراهن.

من هنا نقول إنه لما كنا ـ نحن أبناء الأمة العربية والاسلامية ـ مهددين قبل غيرنا وأكثر من سائر الأمم والشعوب بالدمار والهلاك، ناهيك عن المسؤولية التاريخية الملقاة على عاتقنا. ولما كانت حركة التغيير العالمية ورياح التحوّلات والتبدلات الوطنية والاقليمية والدولية تهبّ اليوم في

الجهات الأربع من الكرة الأرضية، فإنه من باب أولى أن تمسّ أوضاعنا وأحوالنا نحن أمة الوسط وأمة التغيير والتبدل والتحولات الكبرى على مر التاريخ. وإذا لم يكن هناك أي سبب آخر للتغيير في أوضاعنا، ولا نملك أي وازع داخلي يدفعنا إلى تجديد نهضتنا واستعادة دورنا التاريخي في المسيرة الانسانية، فإن النظرة الواقعية ـ البراغماتية ـ إلى ما يدور حولنا وما يُحيط بنا من تداع للأمم علينا وتهديد لأصل وجودنا وقضم متواصل لبلادنا وثرواتنا ومقدراتنا تكفينا لنفض الغبارَ عن وجوهنا وتلمُس طريق النهضة والقيام والمبادرة بأخذ الدور الملائم لأمتنا بين سائر الأمم الناهضة والتي تتنافس اليوم في سبيل اعادة صياغة العالم الجديد وصناعة مستقبل انساني سعيد للبشرية جمعاء.

أولاً: الوحدة القومية بين العروبة والاسلام

إن استقراء حال الأفراد في أية أمة من الأمم ودراسة أهوائها ورغباتها يثبت من دون صعوبة وجود رابطة قوية في ما بينهم أشبه ما تكون بالرابطة الوجدانية أو الشعور الداخلي القوي الجاذب في ما بين الأفراد للدفاع بعضهم عن البعض الآخر أمام تحديات الطبيعة وضرورات الحياة. وهذه الرابطة الانسانية العامة عادةً ما تكون متفاوتة ومتمايزة بمقدار بُعد الواحد من أفراد الأمة عن نظيره الفرد الآخر في الصورة والشكل والواقع الظاهري، الأمر الذي يخلق انطباعاً محدداً في صورة العقل تُحرِّكها وتقوِّيها ضرورات الحياة اليومية كلما كان القرب متواصلاً وتُسكِّنها وتُضعفها وقد تُميتها أحياناً تصاريف الحياة عندما تكون شديدة جافة مصحوبةً بالتقاطع والبُعد أو كما يقول المثل العربي الشعبي «البُعد جفاء».

لا شك أن رابطة النسب والقرابة والرحم هي من أقوى الروابط المعروفة بين البشر. ولا شك كذلك في أن هذه الرابطة، ما دامت لا تخرج عن كونها رابطة قربى وصلة رحم وتعاون وتكاتف وتواصل ووصل، فإنها من الروابط الممدوحة والمصونة في مختلف شرائع البشر ومنها شريعة العرب الأوائل قبل الاسلام بل وحتى الشرائع السماوية التي جاءت بها الديانات التوحيدية التي تُوِّجت بشريعة الاسلام الخاتمة والخالدة.

بل إن الاسلام الذي نزل وحياً إلهياً على قلب سيد البشرية وخاتم الأنبياء الرسول الأعظم محمد ﷺ قام بتوسيع دائرة هذه الرابطة واهتم بها اهتماماً بالغاً وجعلها جزءاً عضوياً لا يتجزأ من مبادىء الدين الحنيف عندما أخرجها من وعائها الجاف وإطارها الجامد والمحدود بالعشيرة والقبيلة وسياق الأنساب ورابطة الدم الخالص إلى إطارها الروحي والمعنوي الهائل عندما آخى بين المهاجرين والأنصار واعتبرهم أرحاماً بعضهم لبعض وأبناءً لعائلة واحدة كما جاء في الحديث الشريف المنقول عن رسول الله ﷺ وذلك في تفسير الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿... **وأولوا الارحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين...**﴾[1].

إن الاتحاد والتكاتف والتضامن بين آحاد الأمة كالغذاء بالنسبة إلى الجسد. ولا حياة لأمة لا يفكر أبناؤها بضرورة رصّ صفوفهم وبناء سياج متين يحفظهم من شرور الدنيا ونوائب الدهر. وإذا ما أهمل هذا الحس وهذا الشعور بين آحاد الأمة فإن جسم الأمة سيؤول بلا شك إلى الذبول والنحول والارتخاء وبالتالي سيُفضي إلى الموت والهلاك وانعدام الحركة نهائياً ومن ثم الفناء

---

(١) **القرآن الكريم**، «سورة الأحزاب،» الآية ٦.

السرمدي. في حين أن مشاعر التواصل والتآخي والاتحاد والتكافل والتضامن سترفع بالضرورة من همم الأفراد وشيمهم السامية وتقودهم بالتالي إلى الإقدام والإبداع والنبوغ والغلبة والسيادة والسؤدد.

والأمة العربية ليست استثناء بين الأمم، فهي مثلها مثل الأمة الصينية والأمة الروسية أو الأمة الايرانية أو الأمم الأوروبية المختلفة، ينطبق عليها ما ينطبق على سائر الأمم من ضرورة حث أفرادها وآحاد الملة فيها على حب التآخي والوحدة والاتحاد والتآزر ورص الصفوف لتشكيل أمة عربية واحدة. كل ما هنالك أن هذه الأمة مطبوعة منذ نشأتها الأولى أو منذ اكتشافها ذاتها وتشكيلها هويتها الذاتية والموضوعية بطابع الحضارة الاسلامية وتعاليم الدين الاسلامي الحنيف. وهذا ما لا ينكره عليها حتى أشد المدافعين عن القومية العربية من رواد الفكر القومي الأصيل كما ورد في مجلة «المستقبل العربي» من قول للدكتور عبد الله عبد الدائم في مقالته **الايديولوجيا القومية العربية**: «فدروس التاريخ تعلّمنا أن جذور المشاعر القومية العربية ترجع إلى الأيام الأولى للحضارة العربية ـ الاسلامية وإلى الصلة العضوية العميقة التي انعقدت بين العروبة والاسلام...»(٢).

ولما كان الأمر كذلك، فإن هذا الوعاء العربي، أو قل هذا الجسم العربي، إذا ما أردنا له أن يصلب عوداً ويقوى بنية ويشتد أوده ويُغالب الأمم في النهضة والحضارة والتقدم لا بد لنا من تغذية روحه النافخة فيه منذ الجذور. تلك الروح التي تمنحه التوازن وقوة الاندفاع الدائم والاستمرارية الوجودية المتصاعدة. نعم تلك الروح التي يقول عنها السيد جمال الدين الأفغاني بأنها تقوم على ركنين أساسيين من أركان الديانة الاسلامية الخاصة ببقاء الأمم ونموها وإدامة حياتها. وذلك في مقالة له في جريدته **العروة الوثقى** التي كان يصدرها هو وزميله الشيخ محمد عبده، رحمهما الله؛ إذ جاء فيها تحت عنوان **الوحدة والسيادة**: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً**»:

«أمران خطيران تحمل عليهما الضرورة تارة، ويهدي إليهما الدين تارة أخرى، وقد تفيدهما التربية وممارسة الآداب، وكل منهما يطلب الآخر ويستصحبه بل يستلزمه، وبهما نمو الأمم وعظمتها ورفعتها واعتلاؤها، وهما الميل إلى وحدة تجتمع، والكلف بسيادة لا توضع...». وبعد أن يشرح بالتفصيل أهمية هذين الأمرين والعمادين القويين وكونهما فرضين محتومين من فروض الاستمساك بالشريعة واستعانته بالأحاديث النبوية الشريفة التي تدعو إلى ضرورة تآخي المؤمنين وواجب لزوم الجماعة وذم التقاطع والتدابر بين صفوف الأمة، وبعد أن يتعرّض إلى استحالة القيام بفروض الدين الأخرى من دون قيام هذين الركنين بالقول: «هل يمكن لنا ونحن على ما نرى من الاختلاف والركون إلى الضيم أن ندعي القيام بفروض ديننا... كيف ومعظم الأحكام الدينية موقوف إجراؤه على قوة الولاية الشرعية، فإن لم يكن الوفاق والميل إلى الغلب فرضين لذاتهما أفلا يكونان مما لا يتم الواجب إلا به، فكيف بهما وهما ركنان قامت عليهما الشريعة كما قدّمنا...»

إلى أن يقول: «كل هذه الرزايا التي حطت بأقطارنا، ووضعت من أقدارنا، ما كان قاذفنا ببلائها، ورامينا بسهامها، إلا افتراقنا وتدابرنا والتقاطع الذي نهانا الله ونبيه عنه، لو أدّينا حقوقاً تطالبنا بها تلك الكلمة التي تهل بألسنتنا، وتطمئن قلوبنا بذكرها، وهي كلمة الله العليا هل كان يمكن للأغراب أن يمزقوا ممالكنا كل ممزق، وهل كان يلمع سيف العدوان في وجوهنا، وهل كنا نشيم نيران الأعداء إلا وأقدامنا في صياصيهم، وأيدينا على نواصيهم»(٣).

---

(٢) عبد الله عبد الدائم، «الايديولوجيا القومية العربية بين التجديد والترشيد والردة،» **المستقبل العربي**، السنة ١٣، العدد ١٤١ (تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩٠)، ص ٥.

(٣) جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، **العروة الوثقى والثورة التحريرية الكبرى** (روما: مركز الثقافة الاسلامية في أوروبا)، ص ٧٤ ـ ٧٨.

وإذا كان هذا لسان حال الأفغاني ومحمد عبده في الوقت الذي كانت فيه دويلة «الكيان الصهيوني» بعد في طور النطفة الخبيثة، ولم يكن أحد بعد من العرب أو المسلمين، ولا حتى من القوى الاستعمارية الكبرى على استعداد لإعلان دعمه لتسلّط اليهود وزبانية المال والجاه والسلطان العالمي على بلادنا ومقدرات شعوبنا؛ فكيف ينبغي أن يكون حالنا ونحن اليوم نواجه أشرس هجمة عالمية في التاريخ الحديث يتحالف فيها العتاة الدوليون جميعاً بهدف اضفاء شرعية اغتصابهم أقدس قطعة من بلادنا ـ فلسطين ـ وتوسيع رقعة ذلك الاحتلال والاغتصاب لتشمل مزيداً من بلاد العرب والمسلمين؟ الا يصبح من أبسط حقوقنا وأولى أولوياتنا أن ننادي إلى الاتحاد والتآخي والتآزر ولا سيما بين قبائل ولا أقول شعوب البلدان العربية، ويصبح شعار الوحدة العربية المقدمة الطبيعية لوحدة الأمة الاسلامية حتى نتمكن من الوقوف بشموخ وعزة وكرامة أمام حركة الأمم ونهضة الشعوب التي تهب رياح التغيير عليها من جهات الكون الأربع في أيامنا المعاصرة؟! أوَليس رائدنا وحسبه من رائد لا يكذب أهله في هذا الباب أيضاً هو النبي العربي محمد بن عبد الله ﷺ وقد ضرب لنا المثل الأعلى في هذا المجال عندما جعل اجماع الأمة واتفاقها على أمر من الأمور كاشفاً عن حكم الله وأوجب الشرع الأخذ به على عموم المسلمين، كما عد جحوده مروقاً من الدين وانسلاخاً عن الإيمان حتى أنه قال عليه الصلاة والسلام في الحديث الشريف المنقول عنه: «**لو دُعيت إلى حلف الفضول لفعلت**». (وحلف الفضول ما كان من هاشم وزهرة وتيم حيث وفدوا على عبد الله بن جدعان وتحالفوا على أن يدفعوا الظلم ويأخذوا الحق من الظالم، وسُمي حلف الفضول لأنهم تحالفوا على أن لا يدعوا عند أحد فضلاً يزيد عن حقه ويكون نواله بالظلم إلّا أخذوه منه وردوه لمستحقه) وهو من حلف الجاهلية. أليست بلاد العرب ومجتمع الأمة العربية اليوم جامعة وطنية مشتركة لنا نعيش عليها نحن العرب جيلاً بعد جيل، يجمعنا عليها وحولها جامع الحدود والثقافة والاقتصاد والأرض وعشرات الجوامع الأخرى، ناهيك عن الدين القويم الذي يوحّدنا تحت رايته السامية. هذا، فضلاً عن العدو المتربّص بنا الشرور من كل باب وجانب. فهل بعد كل هذا، كثير علينا أن نجتمع تحت راية **حب الوطن من الإيمان** إذا ما فشلنا في الاجتماع على غيرها من الأركان؟ وهل يجوز الصدود عن مثل هذا الواجب أو التشكيك به أو حرفه عن اتجاه البوصلة الصحيح المرتبط ارتباطاً وثيقاً بديننا واسلامنا وعقيدتنا؟ بل إنني أرى أن التخلف عن مثل هذا الواجب، واجب الدعوة إلى الاتحاد والوحدة، التي منها الوحدة العربية، وحدة الأرض، أي وحدة البلدان العربية قاطبة تلك الدعوة التي تقوم عليها وحدة المسلمين وتكاتفهم وتلاحمهم ـ والافتخار والزهو بكل ما يرفع من شأن بلادنا وأمتنا العربية والاسلامية في أي ظرف كان، ولا سيما في هذا الظرف العصيب الذي تتداعى علينا فيه الأمم، إنما هو في الواقع جحود في الدين واختلال في ميزان الشرع حتى يصدق عليه قول الشارع المُقدَّس: ﴿**الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل، ويُفسدون في الأرض، أولئك هم الخاسرون**﴾[٤].

إن الواجب الوطني إن كنا عرباً ونكتفي بانتمائنا الوطني والقومي إلى هذا الشعب لا غير، كما ان الواجب الديني إن كنا عرباً وطنيين وقوميين ـ (بمعنى وحدة القوم) ولكن اسلاميين أيضاً بمعنى الالتزام برسالة الاسلام يدعونا أكثر من أي وقت مضى في هذه الأيام الحرجة والحساسة من تاريخ أمتنا العصيب أن نرفع لواء الوحدة والاتحاد بين العرب جميعاً في دويلاتهم وكياناتهم القطرية المسخ كافة التي ورثناها من نتائج معادلة ميزان القوى التي أعقبت الحرب الكونية الأولى وهزيمة الخلافة العثمانية بعد تتويج تلك الهزيمة باتفاقيات سايكس ـ بيكو السيئة الصيت.

---

(٤) **القرآن الكريم**، «سورة البقرة،» الآية ٢٧.

رب قائل إن التركيز على هذه الوحدة ـ وأقصد الوحدة العربية ـ في هذا الوقت بالـذات بعد أن انتشرت رياح الصحوة الدينية في كل أصقاع العالم، وبعدما أصبحت الأمم مطبوعة بأديـانها، خاصة أن منطقتنا العربية والاسلامية تعيش هذه الأيام قمة الصعود للتيار الاسلامي وانتشار ما أصبح يطلق عليه بالأصولية الاسلامية ليس سوى صيحة متخلفة عن ركب الـواقع والأحـداث إن لم توصم بنعوت أسـوأ من هذا. لكنني أرى أن الـواجب يستدعي منـا نحن الاسلاميـين بالـذات وأكثر من غيرنا بضرورة استذكـار بعض أوليات مبـادىء ديننا الحنيف التي لخَّصهـا لنا الشـارع المُقدَّس كما تمت الاشارة إليه **حب الوطن من الإيمان** وضرورة لـزوم الجماعـة والالتزام المبـدئي بدعوات الوحدة والاتحاد ونبذ الفرقة والتفرق والتقاطع والتدابـر ـ وهي الحالـة السائـدة في طول بلادنا وعـرضها ـ ولعلنـا في ذلك نقـوِّم ما انحـرف من أمور المسلمـين، ونفتح البـاب واسعاً عـلى مصراعيه أمام سُبُل الحوار والتداول بين أفراد الأمة كافة في شؤون البلاد والعباد، في جـوّ يسوده الوئام والوفاق وعدم التشنّج والاستنكـاف من رفع أبسط الشعـارات وطرح أسهـل نقاط الاتفـاق والوفاق حتى نتمكن من مواجهة المتغـيرات المتسارعـة التي تحيط بنا من كـل جانب، بـل وتندفـع رياحها العاصفة نحونا بسرعة هائلة. وهذا، بالطبع، لن يغنينـا عن مزيـد من التعمق في الحوارات الفكرية واغناء الوعي الجماعي للأمة بروح المبـادىء الاسلاميـة الخالـدة من خلال ذلـك السياج المحكم والرصين الذي نشد به الجسم ونقوِّم به الأود من أمتنا الا وهو سياج الرابطة الدينية، تلك الدعامة الأقوى في سلسلة دعامات الأمم والشعوب.

ثانياً: النطاق الحيوي للرابطة الدينية

إن الله سبحانه وتعالى قد أودع في النفس البشرية طاقات كامنة متعـددة من خلالهـا يُحقق الانسان منفرداً أو مجتمعاً كينونته الفردية أو الاجتماعية، وذلك في سياق السُنن الإلهية والكـونية الثابتة المعالم والمعلومة الحال التي لن تتبدل في مختلف العصور والأزمـان. وترى الإنسـان ينشط من خلال تلك الطاقات ويظهر نشاطه تجاه ذاته أو في علاقته مع أفراد المجتمع المحيطين به سـواء الأقربين من العشيرة أو أفراد القبيلة والشعب أو الأمة الواحدة أوْ في علاقة الأمم بعضها ببعض، أو علاقة الفرد ـ الإنسان ـ بربه أو بالطبيعة المحيطة بوجوده. وهذا التمايز في الوجود وفي السلوك البشري قد تم الإقرار به في إطار الوحي القرآني بشكل لا لبس فيه. ونحن إذا تكلمنـا على رابطـة القرابة أو الترابط الأسري أو الاجتماعي في اطـار الشعب أو الأمة الـواحدة، ومن ضمنهـا رابطة الشعب أو الأمة العربيـة، إنما أردنا وضعها في ذلك السياق القرآني الطبيعي المعترف بـه لسائـر الأمم والشعوب دون تمييز أو تفاضل. يقول تعالى في كتابه الكريم: ومن آياتـه **﴿ان خلقكم من تراب، ثم إذا انتم بشر تنتشرون﴾**. ومن آياته **﴿ان خلق لكم من انفسكم ازواجاً لتسكنوا إليهـا وجعل بينكم مـودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾**. ومن آياته **﴿خلق السموات والأرض واختلاف السنتكم والوانكم ان في ذلك لآيات للعالمين﴾**(٥).

نعم هذه هي النظرة الطبيعيـة إلى أفراد الجنس الانسـاني العام. فهنـاك تقريـر واضح في اختلاف الألسنة والألوان والهيئة. وبالتالي، فإن التمايزات في النشأة والسياق التطوري أو الترابط التنموي لا بد أن يتم احترامها من قبل البشر أنفسهم إذا كان الخالق نفسه قد أقرَّهـا في برنـامج الخلق الأول والأساس. وقد تكون هناك حكمة عليا وفلسفة ربانيـة وخير كثـير في هذه التعـددية في

---

(٥) المصدر نفسه، «سورة الروم،» الآيات ٢٠ ـ ٢٢.

الخلق والنشأة وتكوين النفس البشرية. وهل بعد ذلك من بد غير الاعتراف بهذه السنة التكوينية ومحاولة صقل حركتها الانسانية والتعالي بها في الإطار التكويني الخلّاق نفسه؟ وذلك من خلال ما تمّت الاشارة إليه في مسألة الوحدة والتواصل والتآخي على مستوى كل زوج أو على مستوى العشيرة أو الشعب أو القبيلة وصولاً إلى وحدة الأمة العرقية الملتحمة بـرباط الآصرة الدينية الأعلى.

إذن، لا بد من الشروع أولاً في الإقرار بوجود اختلاف الأمزجة والطبائع وتعدد النماذج والأشكال في الأوضاع الاجتماعية، وأنه لا خوف عليها ما دامت تجري وتوضع في اطار ثوابت الناموس الكوني كما جاء في قوله تعالى: **﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم...﴾**(٦).

ومن ثم تأتي الخطوات تباعاً لشدّ هذه الأواصر وتلاحم هذه المظاهر وصولاً بها إلى أعلى درجات الوحدة والترابط بين بني البشر وذلك عندما تتسامى النفس البشرية وترتفع إلى قمة القمم من خلال رابطة التقوى التي هي فوق الروابط وما فوق كل الأواصر القبلية أو العرقية أو النَسَبية أو ما شابه من تلك العلائق الانسانية المتعددة. ولكن كل ذلك لا يتم إلا عبر سياق طبيعي ومتّسق الخطوات وثابت الخطى لا يعرف التخريب أو التمزيق أو الإنكار أو الاستهانة بأية رابطة من الروابط الانسانية المتعددة. بل اقراراً بها جميعاً ثم ربط بعضها بالبعض الآخر في صيرورة انسانية وعملية تعارفية كبرى تؤدي إلى تلك المنزلة الرفيعة التي هي منزلة التقوى: **﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾**(٧).

إذن لا بد من عصبية تجاه الأقربين أولاً، وتجاه الآخرين من بني قومنا ثانياً، سواء القوم أو العشيرة أو الأمة، بشرط أن تبقى تلك العصبية محافظة على صفة الاعتدال وعدم الوقوع في حبائل الافراط أو التفريط. ذلك أن التعصب صفة مثلها مثل سائر صفات النفس الانسانية تأخذ أحياناً طابع الافراط أو التفريط فتصبح عصبية جاهلية مُنتنة نهانا عنها رسول الله ﷺ في الحديث الشريف، ولكنها عندما تأخذ جانب الاعتدال فإنها الكمال بعينه. وبالتعصب الصحيح للأمة ومن خلال رباط التقوى، وهو سياج الرباط الديني الحامي للعصبيات القومية إنما نستطيع أن نصون وحدة أممنا وشعوبنا في بلاد الشرق، ونُغالب بها سائر الأمم والشعوب. إذ ان مثل هذا التعصب أو هذه العصبية الممزوجة بالتقوى والقائمة على تحكيم أسس العدالة وعدم الشطط في التمايز أو التفاضل بين الأمم هو العاصم الذي يحمينا ـ من شرور الأعداء وغلبة قوى العدوان والتآمر والتسلط والهيمنة الدولية في الوقت نفسه الذي ينفخ في روحنا الكلية والجماعية التي بدورها ستمنحنا الهمة العالية والنخوة وتملكنا وسائل العزة والمنعة اللازمة لاستقامة أممنا من دون عدوان أو تعدٍّ أو تجاوز لحقوق الأمم والشعوب الأخرى.

والآن إذا كانت الوحدة بين آحاد كل ملة والاتحاد والتآخي والتضامن بين سائر الشعوب والأمم التي تجمعها القواسم المشتركة ولا سيما قاسم الرباط الديني ـ واجباً وطنياً وقومياً ودينياً، بل انسانياً عاماً ينطبق نظرياً على كل الشعوب والأمم التي تريد السيادة والغلبة والظفر بالمجد والسؤدد من دون إجحاف لأحد أو لأمة من الأمم. وأن هذا الأمر ثابت نظرياً وفكرياً بالنسبة إلى

---

(٦) المصدر نفسه، «سورة هود،» الآيتان ١١٨ ـ ١١٩.

(٧) المصدر نفسه، «سورة الحجرات،» الآية ١٣.

بلداننا العربية والاسلامية، وأنه يمكن استنباط ذلك بسهولة من تراثنا وديننا وتاريخنا المشترك. فكيف بنا الآن، وقد آلت الأمور في سائر أمصار وأقطار الوطن العربي والاسلامي إلى أن وصلت فيه إلى أسوأ أنواع الفرقة والتشتت والتمزق، حتى أصبحت فيه مقدراتنا جميعاً ودون استثناء تحت سيادة وهيمنة اليهود وصيارفة النقود وأرباب المال العالمي يتحكمون بنا وبمصائرنا كيفما يشاؤون تحميهم في ذلك قاعدتهم المتقدمة التي تمثل الغدّة السرطانية في قلب كياننا العربي والاسلامي ألا وهي دويلة «اسرائيل»؟ في مثل هذه الحالة ألا تصبح الوحدة اضافة إلى ما تقدم أمراً مصلحياً وضرورة عملية وشأناً براغماتياً لا مناص من تحقيقه حتى نخرج من هذه الشرنقة الاستعمارية الخطرة التي تلتف حول رقابنا؟! وإذا كان هناك من ينكر علينا هذا أو يتغافل عنه فنريد له أن يتذكر فقط المقاطع التاريخية التي مرّت بها أمتنا وهي في مثل هذا التشتت، وكيف أنها اضطرت في حينها إلى تقديم التنازلات تلو التنازلات وأصبحت أسيرة الأجنبي وهيمنته وسلطته الغاصبة، رغم كل ما كانت تملكه من تراث فكري ونظري ودعوى بالاعتصام بحبل الله المتين وقيم السماء وتمثيلها لنظام الحق وكون نظام حكمها هو النظام الأكثر تسديداً وترشيداً من سائر أنظمة الحكم العالمية الأخرى.

هل نسينا كيف أن اختلاف كلمة المسلمين في القرن السادس والسابع للهجرة وتشتت ولاءاتهم قد سهّل للحروب الصليبية وغلبة المغول والتتار على المالك والولايات الاسلامية المختلفة؟ أم هل نسينا كيف أن اختلاف هذه الكلمة في القرنين الثالث عشر والرابع عشر قد أدّى إلى ابتلاء أمتنا بالاستعمار الأوروبي وصولاً إلى انهاء الخلافة العثمانية وهي الدولة المركزية للمسلمين، وذلك بعد أن استولى الانكليز والفرنسيون على سائر ممالكنا ولا يزالون بعد أن أشركوا بعد الحرب الكونية الثانية الولايات المتحدة الأمريكية معهم بل ونصّبوها ملكة للقوة العالمية في عقد الثمانينيات؟

إن اختلاف كلمتنا نحن العرب كما المسلمين هو الذي جعل السيطرة لليهود علينا أمراً ممكناً. بل إنهم صاروا هم الداعون إلى وحدة الشمل ولمّ الشتات ورص الصفوف بينهم.

وبهذه الطريقة سرقوا فلسطين منا وهي مركز وحدتنا والقلب من جسمنا بينما نحن لا نزال نتخبط في النظرية والنظرية المضادة حول شروط الوحدة أو ضرورتها أو عدم ضرورتها، وهل تكون وحدة وطنية أم قومية أم دينية. إنه سجّل أسود ومخز - سجّل الفرقة والشتات هذا - ولا بد من طيّه بأسرع ما يمكن ولو حدث ما حدث لأن التاريخَ لا يرحم والله لنا بالمرصاد في الدنيا قبل الآخرة. ولنتعلم بعض الدروس من عدوّنا اللدود الملحاح الذي لم ييأس ولم يتراجع ولم يستسلم في سبيل وحدته الباطلة - فكيف بنا ونحن على جانب الحق؟ ولا بأس هنا من ذكر بعض المقاطع التي وردت في محاضرة للشهيد **مرتضى المطهري** قبل أكثر من عشرين سنة ينبّه العرب والمسلمين فيها إلى هذا الموضوع الخطير. يقول المطهري في معرض شرحه القضية الفلسطينية:

«إن واحدة من القضايا التي تسوّد سجل قرننا الحاضر وتجعله مظلماً هي قضية فلسطين... فيهود العالم وبعد ما تعرّضوا له من عذاب ومحن ومعاناة على أيدي شعوب غير اسلامية (في روسيا والمانيا وبلدان اخرى كثيرة) جلس كبارهم مجتمعين في مؤتمراتهم وصاروا يقولون ما دمنا متفرقين وموزعين في الشتات، فإننا سنظل أقليات لا قيمة لها في العالم وسيظل مصيرنا هكذا مجهولاً. ولا بد لنا من مركز نختاره لأنفسنا لنجتمع فيه ونلم حوله شمل اليهود من أنحاء الدنيا. ولم تكن أرض فلسطين في مخيلتهم في بداية الأمر، إلى أن جاءت الحرب الكونية الأولى. وباختصار، اندلعت الحرب بين الحلفاء والعثمانيين. ولست هنا بصدد الدفاع عن دولة العثمانيين لكنها على أية حال كانت تمثل مركزية للمسلمين حتى وإن كانت ظالمة لكنها بالتالي دولة مركزية. فما كان من وجهاء العرب السذّج آنذاك

والذين كانوا قد طفح الكيل معهم في مقابل العثمانيين إلا ان رضخوا لتحريك الحلفاء وبدأوا بشن الحرب الداخلية ضد الحكم العثماني أملًا بالحصول على الاستقلال الذي وعدهم به الحلفاء...». وبعد أن يشرح المطهري تحالف الانكليز، وتواطؤهم مع الصهاينة في خلق دويلة الكيان الصهيوني على أرض فلسطين وبيعهم العرب، وبالتالي خروج العرب والمسلمين مشتتين ومتفرقين وفاقدين أبسط الحقوق الانسانية في أرضهم وبلادهم ومقدساتهم نتيجة لتلك الفرقة وغياب منظور الوحدة في ما بينهم يعود إلى شرح النظرة الصهيونية البعيدة المدى التي تُهدد كيان الأمة الاسلامية كلها فيقول: «وهل تتصورون أن الهدف من وراء كل هذه الأعمال هو تشكيل دولة صغيرة لهم في فلسطين؟! إذا كان هذا هو تصوركم فأنتم على خطأ أكيد. ونحن جميعاً مخطئون. إنهم يعلمون جيداً أن مجرد دولة صغيرة لا يمكن لها أن تستمر في الحياة في هذه البلاد. فهذا الكيان يجب أن يكون اسرائيل الكبرى التي ستشمل حدودها لربما حتى ايران...»[٨].

نعم، إنه المنظور البعيد الذي حرَّك اليهود وما زال يحركهم وهم على باطلهم في ضرورة الغلبة والسيادة على سائر الأمم والشعوب وذلك باستخدام كل وسائل الاتحاد والتعاضد والتضامن في ما بينهم ضد قوى الحق بعد تمزيق وحدتها وتشتيت صفوفها وضرب كل مقومات الحياة فيها. فتراهم يدافعون عن الأمن القومي لأية منطقة من مناطق العالم، وأي بلد من بلدان الدنيا ما دام يخدم قضيتهم المركزية. فهل نغفل عن هذا الحق نحن العرب والمسلمين، ونحن أولى من غيرنا بالاهتمام بمفاهيم الوحدة والسيادة والغلبة؟! بينما يحق مثل ذلك لليهود وهم المتحالفون مع الشيطان للقضاء على كلمة الحق وتثبيت ارادة الشر والعدوان وإبادة الجنس البشري؟! إنهم يريدوننا قطعاً صغيرة متناثرة ووحدات هزيلة متباعدة، لا أمن لأية واحدة منها إلا بالتبعية والالتحاق بأمن اسرائيل الكبرى. ذلك الأمن الذي تحميه قوة الشيطان الأكبر والطاغوت الأعظم المتمثل بالولايات المتحدة الأمريكية. ولا بد لنا من رفض هذا الأمن المُجزَّأ والدعوة بالمقابل إلى أمن واحد موحد لكل شعوب المنطقة يحميه سياج من الرباط الديني المتين. وليس عيباً ولا نقيصة ـ وأقولها بصراحة لكل الوحدويين العرب الأصيلين ـ أن تكون وحدتنا قائمة على أساس الدين والعصبية الدينية التي هي من صلب عقيدتنا وتراثنا. وفي الوقت الذي يتشدق فيه قادة أمريكا بجذورهم الدينية ومثلهم ومبادئهم الايمانية المؤسسة لولاياتهم المتحدة وكذلك حال الاسرائيليين، فإن الأجدر بنا نحن العرب والمسلمين أن ندعِّم وحدتنا ونصونها ونسيِّجها برباط الإيمان والدين الحنيف. فهذا نيكسون، وهو الرئيس المحارب لشعوبنا وشعوب العالم الحر قاطبة، وأستاذ رئيس الولايات المتحدة الحالي في السياسة والمعتقد، وهو يتحدث عن أمريكا المادية وأمريكا القوة الطاغية والمعاندة للحق وللحقيقة لا يستحي من القول: «لقد نهض بتأسيس أمريكا أفراد كانوا ينشدون الحرية الدينية، وارادوا أن يكون لهم حق عبادة الله بطريقتهم الخاصة. وعلينا ألا نغفل عن هذا المبدأ الموحى من مبادىء بلادنا...»، وأنه: «إذا أردنا أن نستعيد ايماننا وجب أن نلتفت إلى جذورنا. فقبل قرنين مضيا، كانت الولايات المتحدة واهنة عسكرياً وفقيرة اقتصادياً. ولكن البلد الذي انبثق عن الثورة الأمريكية استأثر بخيال العالم لأن جاذبيتنا انبعثت لا من ثروتنا ولا من قوتنا بل من أفكارنا...» إلى أن يقول: «ولا يسع قوة السيف في موسكو أن تهزم قوة الروح في الغرب. ذات يوم تساءل ستالين ساخراً ومزدرياً قوة الكنيسة في التأثير في أحداث العالم فقال: كم عدد الفرق تحت قيادة البابا؟ إن هذا التعليق دليل على عجزه عن فهم العالم وما الذي يحرِّكه. فالتاريخ في خاتمة المطاف تقرره الأفكار لا الأسلحة...»[٩].

فإذا كان نيكسون الذي لا يعرف الحق ولا الحقيقة، ناهيك عن التشبث بأهداب الدين

---

(٨) الشهيد المطهري في محاضرة له في طهران في العاشر من محرم من العام ١٣٩٠ هجري. نقلًا عن مجلة: **المنتقى**، السنة ١٥، العدد ١ (١٩٨٩)، ص ٧٨ ـ ٧٩.

(٩) ريتشارد نيكسون، **١٩٩٩: نصر بلا حرب** (القاهرة: [د.ن.]، ١٩٨٨)، ص ٢٣٠ ـ ٢٣١.

والديانات التوحيدية يتكلم في العقد الأخير من القرن العشرين بهذه الطريقة على أمريكا وروح أمريكا، فما بالنا نحن أبناء الأرض المباركة، أرض الديانات والرسالات التوحيدية. هل يحق لنا أن نظل هكذا مشتتين ممزقين نتحارب بالسيف ونتقاتل على أي المفاهيم الأمنية التي تحمينا من الأعداء؟ هل هو مفهوم الأمن الوطني أم القومي أم الديني؟!

لقد آن الأوان لإعلان الحقيقة وتوكيدها في كل مناسبة. تلك الحقيقة التي تقول إن أمن كل واحد من شعبنا العربي كما هو أمن كل مسلم من بلاد المسلمين إنما يرتبط في الواقع بأمن مجتمع المسلمين الكبير، مجتمع الأمة الاسلامية الذي لا يحميه سوى ذلك المشروع الحضاري الشامل لا سيما ونحن نواجه عدواً شرساً رابضاً في المركز من بلادنا وقد ربط أمنه بأمن الرجل الأبيض على امتداد العالم الصناعي والمدنية الغربية كلها.

ثالثاً: الأمن القومي في الميزان

في الحقيقة إن أمن الأفراد كما هو أمن الجماعات في المجتمع العصري الحديث، يعتمد بشكل جزئي على تصرفات الفرد المعين أو الجماعة المعينة تجاه الفرد الآخر أو الجماعة الأخرى، في حين أن الجزء الآخر من ذلك الأمن يعتمد على تصرفات الطرف الآخر لهذا الفرد أو لتلك الجماعة. وفي حالة وضعنا الراهن في المنطقة العربية والاسلامية، لا بد لنا من تصوُّر اصطفاف عام لمجتمعنا العربي كما الاسلامي في مواجهة ما يمكننا تسميته الآخر. وإذا كنا من خلال ما تقدم قد أكدنا أهمية وضرورة رصّ الصفوف وعقد ميثاق للوحدة بين العرب كخطوة متقدمة يتبعها ميثاق أعلى للاتحاد والتضامن بين الوحدات الاسلامية وصولاً إلى أعلى درجات التلاحم والرباط الحيوي الممكن بين الأمم، وهو الرباط الديني القائم على فلسفة التقوى، وقلنا إن ذلك هو السبيل الوحيد لتحقيق السيادة والغلبة لأمتنا ولنشر المبادىء والأفكار النبيلة التي دعا إليها ديننا الحنيف ورسالة السماء التي تحملها أمتنا إلى سائر أمم الدنيا رحمة بالعالمين، فإن الحديث عن الأمن القومي في هذا السياق وهو ما يكثر التطرّق إليه على صفحات الكتب والمجلات والصحف لا يعدو كونه خروجاً عن الموضوع بل يأتي في صُلب القضية التي نحن بصدد التصدي لها في المقالة الراهنة.

إن أمن الشعب العربي أو الأمة العربية يعتمد بالدرجة الأولى في ما يعتمد على الآخر الذي يتحداها ويكنّ لها العداء وهو الكيان الصهيوني الذي يمثل الخطر الداهم الذي اقتحم قلب الكيان العربي، وهو هائم ينهش في جسم الأمة ويعمل فيها تقطيعاً وتفتيتاً وتمزيقاً من أجل الوصول أولاً إلى حالة من عدم التوازن الأمني ـ وهو ما قد حصل عليه حتى الآن ـ ومن ثم الانطلاق إلى فرض حالة انعدام الأمن في كل قطعة من القطع المجزأة وصولاً إلى فرض هيمنة شاملة للآخر على الكيان العربي وجعل ذلك قاعدة متينة في العلاقات الدولية المستقبلية لفرضها في التعامل مع شعوب وأمم العالم الأخرى حسب نظرية «شعب الله المختار» في مقابل «الغويم» أي السائمة وهو الاصطلاح الذي يُطلقه العنصريون اليهود على سائر الأمم الأخرى من سواهم.

لقد سبق وأشرنا تلميحاً كيف أن أمتنا العربية قد قامت على قاعدة الجمع بين الشعور والوجدان القومي الذي يربط أفراد كل أمة بعضهم ببعض وبين امتلاك تراث وحضارة ودين عظيم جاء وحياً مُنزلاً من السماء على أبسط وحدة اجتماعية في القرن السادس الميلادي، وسمَّينا ذلك اختصاراً العروبة والاسلام. وقلنا إن هذه المنطقة لا بد لها أن تسمو في وحدتها وتوحُّدها إلى مصاف الدرجات العليا في الرباط الحيوي بين الشعوب والأمم لتكون النواة الصلبة لتشكل الأمة

الاسلامية الكبرى الممتدة في دار الاسلام الكبرى من أقصى المغرب في جبال الأطلس في طنجة حتى جاكارتا حيث الحدود الاعتبارية المعروفة للعالم الاسلامي الحديث.

ولا بد أن توجهاً كهذا وسلوكاً وحدوياً بهذا الأفق الواسع الذي يُظلل تحت لوائه شعوباً وقبائل بل أمماً من أجناس مختلفة لا يحلو للعدو المتربص بنا شراً أن يرى ذلك وقد تحقق في يوم من الأيام. ولذلك تراه يضع في صلب استراتيجيته وبرنامج عمله اليومي خطة دائمة لزرع الشقاق والفتن وخلق الكيانات والوحدات الصغيرة المتناثرة التي لا يجمعها أي جامع، ولا يتورع أثناء ذلك من تشويه صورة النواة المهيئة أكثر من غيرها لمثل ذلك العمل الوحدوي الواسع في محاولة لدق اسفين العداوة والبغضاء بين المركز والأطراف ليكون مؤثراً في عمق التاريخ والجغرافيا.

يقول الكاتب اليهودي الصهيوني ديفيد لحاما في كتابه: **الصراع، لماذا؟ وإلى متى؟**: «إن هنالك وطناً واحداً للعرب عائداً لهم، وليسوا غرباء فيه الا وهو الجزيرة العربية، أما بقية البلاد التي يقيمون الآن عليها فليسوا سوى محتلين لها مسيطرين عليها ويقيمون امبراطورية مغتصبة، وينكرون وبكل وقاحة الحقوق الطبيعية للشعوب التي لها الحق الشرعي في هذه المنطقة، قبل الاحتلال العربي. إلا أن هذه الشعوب أصبحت الآن شعوباً وطوائف لاجئة في الشرق الأوسط لها كل الحق في تقرير المصير والاستقلال السياسي. وهناك عبء في الحقوق أو الواجبات ملقى على كاهل الاسرائيليين كي يُقدموا يد العون إلى أولئك المتعفنين في عبوديتهم في السجن العربي، لذا يجب ايجاد لغة مشتركة وطريق عمل واحدة مع الأكراد في العراق والدروز في سورية والزنوج في السودان والموارنة في لبنان، والأقباط في مصر، وسائر أبناء الشعوب والديانات التي تحارب سوية من أجل التحرير والاستقلال. إن من العدالة والنزاهة والحكمة السياسية أن تعمل اسرائيل على الفك التام للامبراطورية التي تعتبر آخر امبراطوريات الماضي التي انتهت في عصرنا»(١٠).

وهل هناك أفصح من مثل هذا النص الذي يبيِّن الخطة اليهودية المبيَّتة للفصل بين العروبة والاسلام؟ وكيف أن تحقيق الأمن الاسرائيلي إنما يعتمد بالأساس على ضرب استقرار وأمن كل ما يحيط بالكيان الصهيوني وعلى أوسع نطاق ممكن؟ والمتتبع للتصريحات الاسرائيلية والكتابات اليهودية على امتداد المراحل الزمنية المتعددة لوجود الكيان العبري الغاصب سواء قبل الاحتلال والاغتصاب أو بعده، يستطيع أن يجمع عشرات بل مئات الاشارات والشواهد ومن ثم الأمثلة والخطوات العملية المتعددة التي تثبت هذه السياسة الخبيثة القائمة على زعزعة أمن الآخرين ضماناً لبقاء واستمرارية هذا الكيان الغريب المزروع في قلب الوطن العربي والاسلامي في فلسطين.

من هنا تأتي أهمية ومركزية فلسطين في مفهوم الأمن القومي العربي، وبالتالي الأمن القومي الاسلامي ككل. ذلك أن أمن كل جزء من بلاد المسلمين مرتبط لا شك بأمن الشعوب والقبائل أو الأجناس المنتشرة على امتداد دار الاسلام الكبرى منذ العهود الأولى لظهور دولة الاسلام. وبالتالي، فإن ضرب أو زعزعة أمن كل قبيلة أو شعب أو جنس من الأجناس في أي مكان من أماكن تواجده يعني انتشار ظاهرة انعدام الأمن كالنار في الهشيم على امتداد العالم الاسلامي. وليس من باب المصادفات أو من باب رمي القول جُزافاً أن يصف الساسة الأمريكيون بلاد العالم الاسلامي بهلال الأزمة. نعم إنه الهلال الذي يؤرقهم في أمنهم وفي أمن قاعدتهم المتقدمة «اسرائيل».

---

(١٠) ديفيد لحاما، **الصراع، لماذا؟ وإلى متى؟** ترجمات خاصة بمؤسسة الأرض للدراسات الفلسطينية، ص ٤١ ـ ٤٢. [من كتاب: **استراتيجية الصهيونية واسرائيل تجاه المنطقة العربية والحزام المحيط بها** (دمشق: [د.ن.]، ١٩٨٢)].

وليس عجباً بعد ذلك إذا ما سمعنا قادة «اسرائيل» وهم ينادون بضرورة تقطيع أوصال ذلك الهلال وذلك عبر محاولاتهم المتكررة لخلق سياجات أمنية معادية للعرب من جهة، وصديقة للكيان الصهيوني من جهة أخرى، كما فعلوا أيام شاه ايران، بالتعاون مع تركيا وهيلا سيلاسي الحبشة، وهم ما يحاولون تكراره اليوم مع هيلا مريام الحبشة ونوعاً ما مع تركيا، بالرغم من خسارتهم قاعدتهم القوية في ايران بعد تسلّم الاسلاميين الحكم في ايران.

يقول بن غوريون: «إن هدفنا هو تسوير نطاق العزلة حول الوطن العربي»(١١) وهو بذلك يقصد بلا شك اخراج الوطن العربي من هيئته الروحية، أو اخراج الروح من جسم الوطن العربي. إذ إن الهدف النهائي الذي يسعى إليه الصهاينة هو المحافظة قدر الامكان على أمن مستقر لكيانهم العبري المصطنع وذلك لأطول فترة ممكنة من خلال تعميق أزمة الأمن لدى الآخرين المحيطين بهم.
يقول ديفيد لحاما في كتابه الآنف الذكر: «هناك بين ايران وتركيا وبين العرب معارضة شديدة، قومية وثقافية لا يمكن ازالتها، وحتى أن هناك معارضة جغرافية يحتمل أن تكون الأمر المقرر، فلكل من ايران وتركيا حدود مباشرة مع الدول العربية المركزية في الشرق الأوسط، ولهذه الحقيقة تأثير كبير على علاقاتها مع الدول العربية المجاورة، وهي علاقات تتأرجح ما بين العداء البارد والعداء النشط لدرجة نشوب الحرب»(١٢).

لاحظ هنا التوجيه الدعائي والاعلامي المقصود واللعب على الوتر العرقي والديني والخلافات الحدودية. وبالمناسبة، فإن هذه الكتابات سابقة على الحرب العراقية ـ الايرانية وعلى أزمة الخليج الراهنة. إن هذا العمل العدواني المكثف لا يمكن مواجهته في الواقع العملي المضاد إلّا بعمل مضاد يوازيه بالقوة ويعاكسه بالاتجاه. ولا يخرج أي مشروع مستقبلي لهذه المنطقة إلى النور أو يمكن أن يحقق الرخاء والازدهار والنمو لمجتمعات بلادنا من دون أن يواجه هذا العبث الأمني الاسرائيلي. والقاعدة الأساسية الوحيدة التي يمكن الاستناد إليها أو الانطلاق منها لمواجهة مشروع الأمن الاسرائيلي لا يمكنها في الحقيقة إلا أن تكون قاعدة العروبة والاسلام ليس بالمعنى التقليدي لهذا الكلام. بل بنظرة شمولية وواقعية في أن تجمع بين ضرورة رؤية العرب والتعامل معهم على أساس وحدة أمنية واحدة، وفي المقابل رؤية العالم الاسلامي المحيط بالعرب بمثابة الدائرة الأمنية الأكبر والأوسع التي تشكّل روح الوحدة الأمنية العربية الصغرى. وأن كلا الوحدتين إنما تتداخل في جامع أمني مشترك أو صمام أمني واحد هو ـ فلسطين ـ تلك الحلقة الأمنية المفقودة التي من دونها يظل أمن الدائرتين الصغرى والكبرى يعاني مأزقاً دائماً لا حلّ له على الاطلاق. بل إن الخطر المحدق بالدائرتين سرعان ما يحوّل تلك الوحدات الأمنية إلى وحدات صغيرة ومتناثرة مقطعة الأشلاء، لا حول لها ولا قوة، مهما علا شأنها، أو نما اقتصادها، أو تعددت سبل تطور حياتها، أو تضخمت امكاناتها المادية أو المعنوية. ذلك أن الآخر الذي يهددها لا يريد لها أية درجة من درجات الاستقرار، ولا أية درجة من درجات الوحدة والاتحاد، مهما كانت هيئتها أو صورتها. فهو يلاحقها في أبسط مقوماتها، حتى تلك التي لا تخرج من نطاق حقائق التاريخ والجغرافيا الأكيدة، التي لا يختلف عليها اثنان على وجه البسيطة.

وهذا هو تيودور هرتسل يقول: «إن ما يلزمنا ليس الجزيرة العربية الموحدة، وإنما الجزيرة العربية

---

(١١) هارتس، ١٩٧٣/٩/٤، والمصدر نفسه، ص ١٤٧.
(١٢) لحاما، الصراع، لماذا؟ وإلى متى؟ ص ٧٧ ـ ٧٨. [من كتاب: **استراتيجية الصهيونية واسرائيل تجاه المنطقة العربية والحزام المحيط بها**، ص ١٥١].

الضعيفة المشتتة المقسّمة إلى عديد من الامارات الصغيرة الواقعة تحت سيادتنا والمحرومة من إمكان الاتحاد ضدنا»(١٣).

فهل تحققت نبوءة تيودور هرتسل في ما نراه اليوم من تلك الحالة المزرية التي تعيشها البلدان العربية، وهي في حالة موزاييك مكسَّر ومهشَّم ينوء أهلها تحت وطأة الغزاة من الصليبيين الجدد الذين يمنعون أهل تلك الجزيرة حتى من أبسط حقوق الانسان، حقوق الدفاع عن النفس أمام نوائب الدهر وعوادي الأيام التي تحيط بأمة العرب والاسلام من كل حدب وصوب؟ أم أنها ما هي إلا سحابة صيف سرعان ما تنقشع وتعود الرؤية ناصعة وثاقبة مرة أخرى تتحدى الإعصار والطوفان الهمجي الحالي فتصل بالسفينة وركابها إلى بر الأمان تحت لواء وحدة العرب وشراع الاسلام والإيمان؟ □

---

(١٣) غريغوري بونداريفسكي، **الخليج العربي بين الامبرياليين والطامعين في الزعامة** (موسكو: دار التقدم، ١٩٨١)، ص ١٣٤.

صدر حديثا

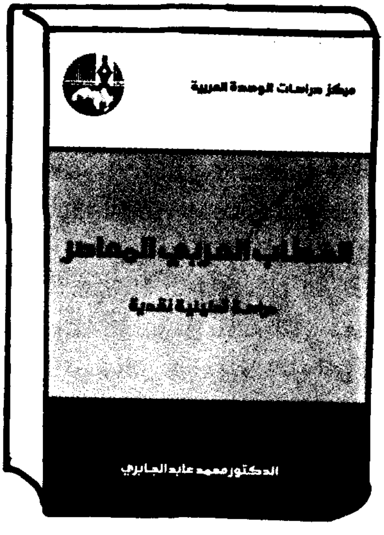

الخطاب العربي المعاصر
دراسة تحليلية نقدية

د. محمد عابد الجابري

الطبعة الرابعة